



سالم المشهور

في صلة الأخلاق بالدين والعقل

عندما نشرع في الحديث عن الأخلاق تستوقفنا الكثير من الأسئلة الشائكة، والتي كانت على مر الزمن موضع اهتمام كثير من الفلاسفة وعلماء الدين، واليوم هذه الأسئلة بفعل الحداثة أصبحت على ألسنة كثير من الشباب ولم تعد من اهتمامات النخبة فقط. فليس من الغريب اليوم أن نجد الشباب في المقاهي يناقشون طبيعة صلة الأخلاق بالدين، وليس من الغريب أن نجد عندهم قائمة طويلة من الأسئلة الفلسفية المعقدة مثل: هل الدين هو مصدر الأخلاق أم العقل؟ هل الأخلاق نسبية أم مطلقة؟ هل يمكن إثبات القواعد الأخلاقية كما ثبتت القوانين الفيزيائية مثلا؟.

في مقاله "العقل والعدل والأخلاق مرياً اللغة والدين والفلسفة" تحدث فيصل الحفيان في مجلة التسامح - التفاهم العدد السابع عن مجموعة من المباحث اللغوية المتعلقة بالعقل والعدل والأخلاق، ثم انتقل للحديث عن مجموعة من المباحث الفلسفية المختلفة.

ولعلنا بحكم المساحة المحدودة المتاحة لنا في المقال، سنضطر إلى عدم مناقشة كل المباحث اللغوية، وجملة من المباحث الفلسفية المطروحة في المقال، لنكتفي بما نراه العمود الفقري في المقال، وهو مبحث صلة الأخلاق بالدين والعقل، والجدل الدائر في ذلك.

١- ثلاثية العقل والعدل والأخلاق

يذهب الكاتب إلى أن هناك ارتباطاً عضوياً بين العقل والعدل والأخلاق، ولتقريب الصورة يمكننا أن نتصور ثلاثية العقل والعدل والأخلاق على شكل هرم مقلوب، رأسه العقل وقاعدته العدل والأخلاق والعلاقات بين الزوايا الثلاث علاقات تفاعلية، ذاهبا وإيابا في جميع الاتجاهات وإن كان العقل بالطبع - كما يرى الباحث - هو الأكثر تأثيراً ومحورية.

٢- علام تتأسس الأخلاق؟

هل تتأسس الأخلاق على العقل أم على الدين؟ هل للعرف والمصلحة دور في تأسيس القواعد الأخلاقية؟

يذهب الباحث إلى أن العنصر الأبرز والأقوى الذي تتأسس عليه الأخلاق هو العقل، بحكم كونه - أي العقل - يتحرك في مساحات كبيرة من دائرة النشاط الإنساني بمختلف أشكاله، وهو أيضاً يشكل جزءاً أساسياً، لا يمكن عزله أو الاستغناء عنه في العناصر الأخرى. وهذه المقاربة من الباحث تعود بنا إلى نظريات وتصورات مجموعة من فلاسفة الأخلاق الذين ذهبوا للقول بأن الأخلاق تُبنى على العقل الخالص ولا تخضع للنسبية ولا تؤخذ من العقل العملي، وأبرز ممثل لهذا الاتجاه عمانويل كانط الذي بحث في المبدأ الأعلى للأخلاق ورفض أن تكون الأخلاق خاضعة للسياقات الاجتماعية والإنسانية المتناقضة، وقد بث فلسفته هذه في مجموعة من كتبه وأعماله ومن أهمها: "تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق" و"نقد العقل العملي" و"الدين في حدود العقل".

٣- الدين والأخلاق

يكاد يجمع علماء الأخلاق على وجود دور كبير للدين في ترسيخ قداسة الأخلاق في عقول وقلوب عامة الناس، فالكاتب المقدسة الرسمية للأديان مليئة بنصوص أخلاقية، تقترب أحياناً من المثالية، وهذا ما جعل بعض الباحثين يقترب من فكرة أن الأخلاق ما كان لها أن توجد إلا بوجود الأديان، فعلى سبيل المثال يرى كارل بوبر أن الأخلاق بدأت مع الدين، وأن أول من وضع قانوناً أخلاقياً هو الإله، وأنه لا يمكن فصل الأخلاق عن الدين، وأن الأخلاق هي مجال الدين وهي وظيفته السامية في المجتمعات



كان نيتشه يؤمن فقط بأخلاق القوة، ويكفر بما عداها، يؤمن بأخلاق السادة ويكفر بأخلاق العبيد، يؤمن بأخلاق روما ويكفر بأخلاق المسيحية، فهو يرى أن الرحمة حيلة ابتدعها الضعفاء لكي يخدعوا بها الأقوياء، وفي المقابل يذهب ماركس إلى أن أخلاق الرحمة هي حيلة من حيل الأقوياء لكي يستضعفوا بها الفقراء والمساكين، بل إن هناك من الشيوعيين من كان يرى أن الأخلاق خدعة ميتافيزيقية وبعضهم قال: خدعة برجوازية، وهناك من يتكلم عن النسبية في الأخلاق بصورة توحى لك أن مساحة الثابت في عالم الأخلاق لا وجود لها، في مثل هذه الأجواء والمخاطر التي تواجه الأخلاق، يأتي الدين ليُسدي أفضل خدمة للإنسانية بتدعيم قداسة الأخلاق وإثبات حقيقتها ونفي الوهم والخرافة عنها، ومنطق الدين في تثبيت دعائم الأخلاق هو الذي حمى عامة الناس من التأثير بإفرازات الحداثة في نظرتها للأخلاق.

وأختم مقالتي هذا بعبارة ذهبية لكانط ختم بها كتابه "نقد العقل العملي" ونُقلت بعد موته على قبره بحروف من ذهب، يقول: "شيطان يملأن الوجدان بإعجاب وإجلال يتجددان ويزدادان على الدوام كلما أمعن الفكر التأمل فيهما: السماء ذات النجوم من فوق، والقانون الأخلاقي في صدري".

الإنسانية، ويقترب من هذه الفكرة فيلسوف إسلامي معاصر وهو الدكتور عدنان إبراهيم الذي يرى أن الأخلاق لا يمكن أن تقوم على غير أساس من الدين. والطرح الفلسفي الذي يربط الأخلاق بالدين ينسجم مع خطاب عامة الوعاظ التقليديين في أوساطنا الإسلامية الذين ربما أحياناً يصل الأمر بهم إلى ربط الأخلاق بالدين الإسلامي فقط.

وفي المقابل هناك نظرية أخرى في الوسط الديني يتبناها المعتزلة وبعض علماء الكلام من بقية المدارس الإسلامية، وكثير من الصوفية، وخلاصة نظرهم إلى الأخلاق نجملها في الآتي: موقع الأخلاق في حياة الإنسان مما يدل عليه الدين، ويرشد إليه، بمعنى آخر إنه أمر لا يؤسس الدين لأنه يُعلم عقلاً، وكل ما يُعلم عقلاً فالدين يكون فيه دالاً ومقرراً، يأتي ليشير دفاًن العقول باتجاه التفكير فيه واستكشافه ولا يأتي ليؤسسه. إننا ندرك بعقولنا البسيطة الأخلاق، ويستوي في هذا الفيلسوف ورجل الشارع وكما قال كانط في "تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق": "الإنسان ليس في حاجة إلى علم ولا فلسفة لكي يعرف ما ينبغي عليه أن يفعل لكي يكون أميناً وخيراً" بل "إن قديس الإنجيل نفسه ينبغي أن يقارن بالمثل الذي لدينا عن الكمال الخلقي قبل أن نصفه بأنه كذلك".

٤- الدين في حماية الأخلاق